

٨- القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وأما هو فخذني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه
وفنه قال : انصرفت إلى داري وقد عزت على أن يكون هذا
منها وأن يكون هذا مني ، وهي إن غابت أو حضرت فأنا لي
كالشمس للدنيا ، لا تظلم الدنيا في ناحية إلا من أنها تضيء في
ناحية ، فظلمتها من عمل نورها . وكانت لي آية فارغة من النوم
فبت أنعم ، وجعل القلب يدق في جنبي كأنه آلة في ساعة
لا قاب إنسان ؛ وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي
سكت بمدخله طويلاً ، وفي أنا صمت آخر كصمت الذي
سكت بمدخله سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً
كالسكران الذي انطرح من نغمة السكر بمد أن هدى طويلاً
وعزب ؛ والوجود كأنه يبدو كالتنقيد لأن معنى الاختناق في
قلبي وأفكاري . ونظرت نظرة في النجوم فإذا هي تنعور نجماً
بعد نجم كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت
الحبيبة ، وكان كل وجه مضى يقول لي كلمة : لا تنتظر
فلما عسعس الليل رميت بنفسى فتمت والمقل يقظان ،
وصنعت الأحلام ما تصنع ، فرأيته في تلك الشقوق التي
ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجب كبرياء المرأة المحبوبة ؛ إنها
لتبدو لميني محبها كالمارية وراء ستر رقيق يشف عنها كالضوء ،
ثم تدل بنفسها أن ترفع هذا الستر ؛ فإن لم يتجرأ هو لم يتجرأ
هي ؛ وكأنها تقول له : قد رفعته بطريقي فارفمه أنت
بطريقيك . . .

وكانت مصورة في الحلم تصويراً آخر فلا ينسكب من
جسمها معنى الحسن الذي أنامله وأعقله ، ولكن معنى السكر
الذي يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تكن غلاظتها عليها كالثياب على
المرأة ، ولكنها ظهرت لي كاللون على الورد الزاهية ؛ تظهر
فتنة وتتم فتنة
أيتها الأحلام ماذا تبدهين إلا مخلوقات الدم الانساني ،
ماذا تبدهين ؟

قلت : يا صديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قص

ما رأيت . ثم ماذا بعد الورد ولون الورد ؟
قال : إنه القلب المسكين دائماً ، إنه القلب المسكين . لقد
ضحكت لي وقالت : هأنذا قد جئت ، وأقبلت ترائيني بوجهها ،
وتنزل بيمينها ، وتنهد بصدرها ، وألقت يدها في يدي
فأحست اليدين تتعانقان ولا تتصاحبان ؛ ثم تركتها تائمتين
إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هنيهة وقد خيل لي أننا إذا
تكلمنا استيقظت يدانا

أما صاحبتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحست بيدها قد
نامت في يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بيمينك نعام يدها وهو
ينتقل إلى عينها فإذا فارتان ذابلتان ، ونحت أجفانهما
حلم قصير ؟

قلت : يا صديقي دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت
يدك على يدي ؟

قال : ثم كانت سيخريه من الشيطان أقيح سيخريه قط

قلت : حسبي لك أنك شرحت لي ما بقي . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ،
وكانني به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره . . . أتدري
ما الذي كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنت مولماً بامتحان قوتي في الضمط بيدي على أعواد
منصوبة من الحديد ، أو على أيدي الرجال الأقوياء إذا سلمت
عليهم ؛ فلما صاحفتني لبثت مدة من الزمن ثم شددت على يدها
قليلاً قليلاً ، فتنهت في هذه المادة ، فسخت الحلم وانصرف
وهي إلى أقيح صورته وأشنعها وأبدها مما أنا فيه من الحب
ولذات الحب ؛ فإذا بأزاني وجه ؛ وجه من ؟ وجه مصارع ألماني
كنت أعرفه من عشرين سنة وأضبط على يده . . .

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عفتك تنبت في تلك الشدة
من يدك ، ولا يزال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع
الناس شياطين ؟

قال : والذي هو أعجب أني رأيت في أضعاف أحلامي كأن
قلبي المسكين يخاصمني وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع
كأنه مخلوق من الظل يري ولا يري إذ لا شكل له ؛ وسبني
وسببته ، وقلت له وقال لي ، وتغالطنا كأننا عدوان ؛ فهو

أستاذة في الرقص لا في القانون
 - القلب : ولكنني لا أختار غيرها محكوماً لي أو محكوماً
 علي . أما أريد أن أنظر فيها وانظروا أتم في القضية
 - الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إذ ذن لها
 أيها الأذن

فنادى المحضير^(١) : الأستاذة . الأستاذة

وجاءت مُبادرة ، ودخلت تمشي مشيتها وقد افترت ثمرها
 عن النور الذي يسطع في النفس ؛ وأومضت بوجهها عينا
 وشمالاً فصرف الناسُ جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة
 من الفتن ؛ وتارت في كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقة البشرية
 فاتتقضت طباع الموجودين في قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها
 قانون المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصوات واختلطت ؛
 وترددت بين جدران المكان صددي في صددي كأن الجدران
 تتكلم مع التكلمين

أصوات أصوات : سبحان الله سبحان الله ! تبارك الله ، تبارك
 الله ، آه آه ؛ آه آه ؛ وسمع صوت يقول : اتهموني أنا أيضاً . . .
 فتتممرت الكلمات وأنا وأنا وأنا . واختفت المحكمة وانبعث
 المسرح بدخول فانتته الزاقصة ؛ وكان المستشارون والنائب
 العام في أعين الناس كأهم صور معقدة على الحائط لا يخشاها
 أحد أن تنظر إلى ما يصنع

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله . . .
 المحكمة المحكمة

- النائب العام : هذا بدء لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن
 تنسحب عليه . نعم إن هذا الوجه الجميل أروع محام في هذه
 القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشموة
 الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتبه . . . عن المتهم . هذا وضع
 كوضع المذنب إلى جانب الذنب . وكأنكم يا حضرات
 المستشارين . . .

فبدرت الحامية تقول في نعمة دلال وفتور : وكأنكم
 يا حضرات المستشارين قد نسيتم أن النائب العام له قلب أيضاً . . .
 واشتد ذلك على النائب وتبين الغضب في وجهه ، فقال :
 يا حضرة الرئيس

(١) هو الموظف الذي يكون في الجلسة للتداء على المحرم

برى أني أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو بمنعني ، وأنه أشق بي على
 ما أشقني ؛ وقالت له فيما قلت : لا فرارَ علي جنابك فاذهب عني
 ولا تتسم باسمي فإنه لا فلان لك^(١) بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول
 في الحب لعلت أن لسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوع مخفف
 من التقبيل ، فاذا هي تركته يرتفع في الدم انتهى يوماً إلى تقبيل
 فه لعمها ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلت أن هذا الضم بين
 اليدين نوع مخفف من العناق ، فاذا هي تركته يشتد في الدم
 انتهى يوماً إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول في الحب ،
 ولكنك مخذول .

وقال لي فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمت أن أنا لها
 الرخصة هي أنا لها ، لا أعوادك من الحديد ؟ فكيف شددت
 عليها ويحك تلك الشدة التي أخرجت لك وجه المصارع ؟
 ولكنك خائب في الحب ، ولكنك خائب .

قلت : فهذه قضية بيني وبينك أيها القلب المدوّ ؛ لقد
 تركتني من الهموم كالشجرة المنسخرية قد بليت وصارت
 فيها التخاريب فلا حياً بالحياة ولا موتاً بالموت ، وكم عادة تنني
 بفاننة بعد فاننة لا عنها إقصار ينتهي ولا فيها مطع مبتدى ؛
 ما أنت في إلا وحش أكبر لذته لطمع الدم .

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتني في محكمة الجنابات ، وكأني
 شكوت قلبي إليها فهو جالس في القفص الحديدي بين المجرمين
 ينتظر ما ينتظرون من الفصل في أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون
 الثلاثة إلى منصة الحكم وجلس النائب العام في مجلته يتولى
 إقامة الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافا
 كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أول من تكلم فقال : ليس في قضية
 القلب محام ، فأبغوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال :
 من عسى تختار للدفاع عنك ؟

قال القلب : أو هنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه
 ليس تحت هذه - وأوماً إلى السماء - ولا فوق هذه - وأوماً
 إلى الأرض - إلا . . .

فبدر النائب العام وقال : إلا الحبيبة . أ كذلك ؟ غير أنها

(١) ذكر اسمه كما تقول مثلاً لا عهد لك

ولم يزد على أن يقول : أحتج من كل قلبي . .
الرئيس : لندخل في الموضوع ، ولتكن المرافعة مطلقة فان
الحدود في جرائم القلب تُسندل وترُقع كهذه الساتر في مسرح
التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول أمهائي
فان هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة
الحامية : ولكنه قلب
النائب : وأنا يا سيدتي لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه كلب .
(ضحك) وتفرج وجه الحامية وخجلت^(١)

— الرئيس : الموضوع الموضوع
النائب : يا حضرات المستشارين . إن ألم هذه الجريمة إما أن
يكون في شخص الجاني أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجاً مثلاً ،
أو صيته الأدي . فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن
القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول
إلى جهنم ... (ضحك)

— الحامية : أستميع النائب عذراً إذا أنا . . . إذا أنا
فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه
« التذاكر » ... (ضحك) وتفرج وجه النائب العام وخجل .
— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت :
إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ناكثة ؟ فهل أنا محتاج إلى
القول بأن المعنى المنطقي ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

— النائب : يا حضرات المستشارين . وأما الصفة ، فهذا
القلب المسكين قلب رجل متزوج ؟ ولا تفرنكم صوفية هذا
القلب ، ولا يحدعنكم نأله وزعمه السموم . إنه على كل حال
يمشق راقصة ، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء ؛ على الزواج وعلى
الشرف . وهبوه متصوفاً متألماً ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل
حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا
اقترف الجريمة . آه . ان هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها

(١) إذا كان كلباً فهو يتبع كلمة ... وهذه من غمزة النائب للحامية ،
ولا ينس الفراء أن المحكمة في الرؤيا ؛ وفي الرؤيا علمنا أن هذا النائب
كأكثر شبان العصر في سنه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن الدنيا
جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن « أنصاف عذارى » بين
الفتيات ... وفي الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ويقال مبهلة — بينها وبين
ساحبة القلب المسكين مناسه ...

— الرئيس مبتسماً : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون
لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ناكثة . . .
(ضحك)

قال صاحب القلب المسكين : وكنت بلا قلب ... فلم التفت
للجمال ، بل راعى ذكاه الحامية ونفاذها وحسن ابتدائها إلى
الحجة في أول ضرباتها ، وتمجبت من ذلك أشد التمجيب ،
وأيقنت أن النائب العام سيقع في لسانها لا كما يقع مثله في لسان
الحامي القدير ، ولكن كما يقع زوج في لسان زوجة ممشوقة
متدلة تجادله بحجج كثيرة بعضها الكلام ... وقلت في نفسي :
يارحمة الله لا يجمل من النساء الجيلات الفائنات محاميات في
هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لحسى مستعارة لكان الصوت الرخيم
وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة نداء قانونياً للقبيلات . . .

ونهدت الحامية العجيبة فسلطت عينها الساحرتين على
النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر في هذه القضية
قضية الحب والجمال ، قضية قلبي المسكين ... أريد أن أعرف
الرأي القانوني في اعتبار الجريمة . أهي شخصية ، فتقتصر على
ساحبها ؛ أو خاصة فتضر غير جانبها ؛ أو عامة فيتناولها العموم
المحدود لمن يجمعهم جامعة الحب ؛ أو هي أعم ، فيتناولها العموم
المطلق للهيئة الاجتماعية ؛ ما هي جريمة قلبي ... ؟

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكاً : (غزتها رابحة) كما يقول الراقصات
والمثلاث . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص في
العام .. (ضحك)

الحامية : جواب جواب القائل : حب أبي بكر . كان ذلك
الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة
عظيمة وتغلظ له الكلام وهو يفرق منها ولا يخالفها . فراها
يوماً وقد طابت نفسها فأراد أن ينهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛
فقال : يا فلانة قد والله أحرق قلبي .. ولم تدعه يتم الكرامة ، فحدت
نظرها إليه وتطبت وجهها وقال : أحرق قلبك ماذا ؟ تخاف ولم
يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبي بكر الصديق
رضي الله عنه .. (ضحك) ورنث ضحكة الحامية فاضطربت لها
القلوب ، ووقعت في كل دم ، وفي دم النائب أيضاً ؛ فأنجز

أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً ، فأعموه أنتم . يا حضرات المستشارين إن التقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون

— المحامية : هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزله ووظيفته ، هذا تعبير جسور . يا حضرة النائب ؛ من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه ؛ بل ألف شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء في لفظة (نائب) غير النون والباء في لفظة (نبي) — النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يجرى في الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيرني في هذه الجريمة أن ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا تلم الكرامة . فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

— المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقه في هذه القضية فلعل المحكمة تأمر لي بكأس . . . (ضحك) — النائب : يا حضرات المستشارين . بمشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً بل محرمياً في شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ؛ كذبها هو صدق من شفتيها . لماذا ؟ لأنهما حراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . . المحامية : تضحك . . .

— النائب بمد أن تتمتع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة في العمل ، ورجلاً في الكسب . . . — المحامية : ولكنك لا تدري تحت أي حمل سقطت^(١) المسكينة . وقد يكون في الرذائل رذائل كمض أصحاب الألقاب ؛ ذات عظمة . . .

— النائب : بحب راقصة ، أي بضعها في عقله الباطن ويشتهيها . نعم يشتهيها . فن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل فكرة الجريمة

والصيت الأدبي يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لمن يمشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة في الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل العائم تكون تحت قدمي المرأة المشوقة

(١) هذه الكلمة لتكتور هيجو

كالمسحة الحشنة تمشح فيها نملها

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس نكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليمثل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيواني للإنسان هو الذي يهيء من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه . وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ، هل رضى بمشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، اورضى بقدر ما . فلي كما هو يقوم في نفسه مانع والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة — المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما في القانون الإنجليزي . وقد قرر الشراح أنه مادام الرضى غير مستلب بكاه ، فالجريمة غير واقعة بكاهما

— النائب : جنحة كل قلب هي جناية من هذا القلب بخصوصه ، على طريقة : «حسنت الأبرار سيئات القربين» . والمبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية . وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً في تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة في هذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة . . .

— المحامية : قد نسيت أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء

— النائب : إذن أطلب عقابه بجرمانه الجال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب باثنتي عشرة مادة وبمشرين وثلاثين الرئيس : وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟ النائب : تأمر المحكمة بالمرافق كلها فتغلق ، وبالسارح كلها فتقتل ، وبالسبا فتبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، وبحرم السفور على النساء إلا العجايز والدميات ، ويمنع نشر صور الجال في الصحف والكتب ، . . .

— المحامية : قل في كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القلب الانساني

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو ؟

للهذا

(لها بقية — طنطا)